موسكو وأزمة الجاسوس الروسي.. موجة ضمن محيط من الصراعات!

مدخل:

يبدو أن موسكو كانت واثقة من نفسها أكثر من اللازم في عملية اغتيال الجاسوس الروسي المزدوِج، سيرجي سكريبال وابنته، في مدينة "سالسبيري" البريطانية؛ حيث تثبت تداعيات الحادث، وردود الفعل الروسية إزاء هذه التداعيات، أن موسكو قد بالغت في تقدير قوتها، وفي تقدير ردود أفعال خصومها عندما أقدمت على ارتكاب هذا الحادث.

وعندما تقول ردود أفعال خصومها؛ فإننا نعني صورة أوسع وأشمل من القضايا والملفات والأطراف، تتجاوز واقعة محاولة الاغتيال، إلى أمور أكبر، كان نقطة استخدام مَن حاولوا اغتيال العميل الروسي المزدوِج، لغاز أعصاب محرَّم دوليًّا، وللمرة الأولى على أرض أوروبية بعد الحرب العالمية الثانية، هي الصاعق المفجِّر لها.

أي أنها كلها حزازات وأمور كانت مختفية ظاهريًّا أسفل سطح السواتر الدبلوماسية، ومكتومة، ولكنها تتراكم، ولذلك وجدت لنفسها منفذًا عندما وقعت الأزمة.

ويؤيد ذلك، أن هناك سابقة وقعت في نوفمبر من العام 2006م، تم خلالها تسميم عميل روسي آخر هارب، وهو ألكساندر ليتفينينكو؛ حيث تم استخدام مادة "البولونيوم - 210"، للمرة الأولى، في ارتكاب عملية اغتيال سياسي، وأشارت التحقيقات التي أعلن "سكوتلانديارد" عن نتائجها في العام 2015م، وذكرت فيها أن الرئيس الروسي فلاديمير بوتين شخصيًّا يقف خلف أوامر تسميم ليتفينينكو، وبرغم ذلك؛ فإن الأمور لم تأخذ هذا المنحى التصعيدي، والذي شمل بجانب قيام 23 دولة بطرد عشرات الدبلوماسيين الروس، منهم ستين في الولايات المتحدة وحدها، بجانب إغلاق القنصلية الروسية في سياتل الأمريكية؛ استدعاء الاتحاد الأوروبي لسفيره في موسكو للتشاور، بالإضافة إلى طرد حلف شمال الأطلنطي "الناتو" لسبعة دبلوماسيين روس، ورفض منح تصريح لثلاثة آخرين، في أحدث الإجراءات في هذا الصدد.

وفي هذا الإطار، تسعى هذه الورقة إلى محاولة رسم صورة شاملة للموقف، وما وراء الأحداث الحالية المتلاحقة في ملف سكريبال، ومعرفة حقيقة مواقف الأطراف المختلفة من الأزمة، والأسباب الحقيقية لهذه المواقف المتباينة في حقيقة الأمر، والتي تتجاوز قضية سكريبال الذي هو بلا قيمة لدى كل هذه الأطراف التي تتحرك هنا وهناك، وحتى تتجاوز نقطة استخدام غاز أعصاب في محاولة اغتياله.

التحرك البريطاني وحاكميته

في حقيقة الأمر؛ فإن التصعيد الذي تشهده قضية سكريبال، حتى ولو تم على خلفية قضايا أخرى أكثر أهمية؛ فإن جانبًا كبيرًا منه يعود إلى الحملة السياسية والإعلامية التي قادتها بشكل سليم وناجح، رئيسة الوزراء البريطانية، تيريزا ماي، في مختلف الأروقة والاتجاهات.

ولقد استطاعت الدبلوماسية البريطانية تحفيز حلفاء لندن في حلف "الناتو"، وحتى في الاتحاد الأوروبي الذي تجري بريطانيا بالفعل مفاوضات الانسحاب منه، لدعمها.

واستغلت لندن في ذلك نقاط مهمة أتت بثمارها، وخصوصًا مع الأوروبيين.

الجانب الأول الذي استغلته لندن، هو موضوع غاز الأعصاب "نوفيشوك"، الذي تتهم بريطانيا روسيا بتطويره سرًّا بما يتنافى مع التزاماتها الدولية فيما يخص توقيعها على "معاهدة حظر تطوير الأسلحة الكيميائية وإنتاجها وتخزينها واستخدامها وتدميرها"، والتي دخلت حيز التنفيذ في العام 1997م.

ويبدو أن لندن قد أرسلت إلى حكومات هذه البلدان أدلة تفيد بالفعل بأن الغاز المستخدم هو نوعية معينة لا تنتجها سوى روسيا، بينما حاولت موسكو القول بأن هذه النوعية من الغازات تنتجها بلدان مثل السويد وتشيكيا، ولكن الأخيرتَيْن نفتا ذلك.

ولم تقف الحملة البريطانية عند هذا المستوى؛ حيث فتحت جوانب أوسع لحشد الموقف الأوروبي ضد روسيا، والتركيز على سوابق حالة روسية مختلفة تُعتبر بدورها الأولى في أوروبا منذ الحرب العالمية الثانية.

ومن بين ذلك، قضية تغيير روسيا للخريطة الجيوسياسية لحدود الدول الأوروبية بطرق غير شرعية وفق رؤية لندن وبعض الأوروبيين، مثل حالة ضم القرم من أوكرانيا، في مطلع العام 2014م، ومن قبلها تشجيع فصل أوسيتيا الجنوبية عن جورجيا، والاعتراف بها بشكل منفرد، خلال الفترة بين العام 2006م والعام 2008م، من خلال تدخل عسكري مباشر.

وكل هذه الأمور من الأهمية بمكان، بحيث يمكن التأكيد أنها من صميم الأمن القومي للقارة الأوروبية، ويُعتبر صمام الأمن فيها بديلاً عن السياقات التي كانت تتم بها إدارة شؤون القارة ودولها قبل وبين الحربَيْن العالميتَيْن، وخلال فترة الحروب النابوليونية وما بعدها، في القرن التاسع عشر.

ملفات وعداءات!

إلا أنه لا يمكن القول إن التحركات البريطانية وحدها تقف خلف هذا التصعيد الذي شمل 21 دولة أوروبية، كان آخرها لوكسمبورج، التي استدعت سفيرها لدى روسيا للتشاور، على خلفية هجوم سالزبري؛ حيث هناك الكثير من الأمور ذات أبعاد اقتصادية وسياسية وأمنية إستراتيجية، حددت حالة الاستقطاب الحاد الحالية إزاء روسيا في أوروبا الشرقية على وجه الخصوص.

فمن خلال تحليل مضمون لخطاب دول الأتحاد الأوروبي؛ فإنه يمكن ملاحظة وجود موقف معتدل نسبيًّا في الحديث عن الأزمة لدى دول غرب أوروبا، مثل فرنسا وألمانيا وإيطاليا، عن دول شرق أوروبا التي تواجه مخاطر أمنية جمَّة بسبب جوارها لروسيا.

فموسكو تعتبر أن حزام دول شرق أوروبا والمناطق التي كانت خاضعة للستار الحديدي وقت الاتحاد السوفييتي، بمثابة مجال حيويٍ لها، بينما هذه المناطق هي الأهم في سلسلة التوسعات التي يقوم بها حلف "الناتو"، في مرحلة ما بعد الحرب الباردة.

وتشعر موسكو في هذا الإطار، أنها محاصرة، أو أن هناك خطط لـ"الناتو" لحصارها في هذه المناطق ذات الأهمية الإستراتيجية لمصالح الأمن القومي الأوروبي، وشركاء "الناتو" فيمن هم وراء الأطلنطي، والمقصد الولايات المتحدة التي قامت ببيع أسلحة بمليارات الدولارات لدول شرق أوروبية، وكان آخرها بيع منظومات "باتريوت" للدفاع الجوي المتوسط، إلى بولندا.

وبجانب ذلك؛ فإن "الناتو" وواشنطن عمدا إلى نشر والتخطيط لنشر منظومات أخرى مماثلة من الصواريخ الدفاعية بحجة مواجهة التهديدات الإيرانية، بينما الأمور تتعلق بمواجهة نوعيات معينة من الصواريخ التي نصبتها روسيا خلال السنوات الماضية، وموجهة إلى قلب الأرض الأوروبية، وقاذفات ثقيلة بعيدة المدى مزودة برؤوس نووية، نشرتها موسكو في مطاراتها القريبة من حدودها الشرقية مع أوروبا.

فمن المعروف في مجال الشؤون العسكرية الإستراتيجية، أن السلاح الدفاعي الذي يقيِّد الأسلحة الهجومية الإستراتيجية لدى الخصم، هو سلاح هجومي إستراتيجي بدوره، لأنه بجانب أنه يعطل وسائل القتال الهجومية لدى الخصم، مما يسمح للخصوم بحرية العمل في أجواء الخصم، وعلى أراضيه.

ولذلك يمكن فهم حديث بوتين قبل أسابيع عن توصل روسيا إلى منظومات من الصواريخ النووية الهجومية متعددة الرؤوس، والتي لا يمكن رصدها أو تدميرها، وتطوير موسكو لقاذفات ثقيلة بعيدة المدى من طراز "سوخوي" و"ميج".

كما شكلت عملية نشر روسيا لدباباتها ومدرعاتها الأحدث في تقنياتها والأقوى تدريعًا، والتي تتفوق على نظيراتها الغربية، وتستطيع مواجهة الصواريخ المضادة للدروع الموجودة في ترسانة حلف "الناتو"، في قواعدها العسكرية القريبة من شرق أوروبا كذلك عامل تهديد ضمن عوامل أخرى تضمنتها عقيدة الأمن القومي الروسية التي أُعلِنَتْ في العام 2016م، أقلقت واشنطن وشركاءها الأوروبيين.

وفي هذا الإطار؛ فإن بعض الأوروبيين لم يتحركوا تبعًا للموقف البريطاني لأسباب أخلاقية، أو حتى لأسباب سياسية أو أمنية قريبة، وإنما الأمر متصل بتحركات لاحتواء سياسات هجومية روسية، شملت توسعًا جيوسياسيًّا، وحرْفًا كبيرًا لترتيبات الأمن الأوروبي في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية، ومساعٍ روسية للمزيد من الهيمنة والتأثير على القرار الأوروبي من خلال أكثر من أداة، ومن بينها موضوع الغاز.

السلوك الروسي.. نموذج تفسيري

فيما يخص الجانب الروسي في هذا الصدد؛ فإن هناك مجموعة من المدركات التي ينبغي فهمها لمعرفة أسباب السلوك الروسي المتكرر بهذه الطبيعة، إزاء مصالح الأمن القومي الروسية.

ففي بعض كليات العلوم السياسية، يدرس الطلبة الشخصية الروسية كنموذج تفسيري للسياسات الروسية الداخلية والخارجية.

والشخصية الروسية تُسمَّى في هذا الصدد بالشخصية الـ"swaddling"، أو "التقميط" أو "اللف"؛ حيث إنه، ومنذ الصِّغَر، يتم التعامل مع الطفل الروسي بطريقة حازمة في لفه أو "تقميطه" حفاظًا على حياته من البرد القارس، بسبب طبيعة البلاد المتطرفة في درجة برودتها؛ فينشأ الروسي باردًا خاوي المشاعر، وذا طبيعة حادة بسبب قضائه طفولته في هذه الصورة من الضبط والربط المادي، والذي له امتداد معنوي في طريقته تربيته.

وفي هذا الإطار، فإنه، وعبر التاريخ، ووفق هذا النمط من الشخصية؛ فإنه من الصعب حدوث أي شكل من أشكال التغلغل داخل المجتمع الروسي، الذي هو مهما بدا من انفتاح؛ مجتمع مغلق على نفسه، ويتعامل بصرامة وحدة مع الأغراب، لدرجة لا يمكن تصورها.

فحتى الصين والشعب الصيني المعتد بشخصيته وهويته القومية؛ أكثر قابلية للانفتاح من الروس.

ويخبرنا التاريخ أن الحكومات الروسية – مهما كان شكلها؛ قيصرية، جمهورية.. إلخ – لا تخضع للابتزاز قط، ولا تفرط أو تتراجع في قراراتها إزاء ما تعتبره مصالحَ أمن قومي، وهو ما بدا في حالة الأزمة الشيشانية، وفي واقعة أزمة رهائن مسرح موسكو، في أكتوبر 2002م، وأزمة رهائن مدرسة بيسلان، في سبتمبر 2004م، وكلاهما كان مرتبطًا بالحرب الشيشانية؛ حيث لم تخضع الحكومة الروسية لأية مطالب لمنفذي العملية، وأنهت الموقف في كل الحالات بمجازر مروعة.

ونفس النمط نجده في حالة الحرب الأبخازية مع جورجيا، والأزمة الأوكرانية، وكذلك الحرب في سوريا؛ فكلها أزمات تبرز نمطًا روسيًّا واحدًا في التعامل؛ الحاد والصارم وغير القابل للتفاوض أو يأبه بالحفاظ على الروح الإنسانية، نظير مصالح روسيا الإستراتيجية.

ولذلك؛ فإن حرب الجاسوسية القديمة المستمرة بين موسكو ولندن، منذ وقت روسيا القيصرية وحتى الآن؛ شهدت حالات تعامل عنيف للغاية من جانب الروس مع الجواسيس الروس الذين يتورطون في جرائم خيانة لصالح بريطانيا أو حتى لصالح غيرها، وهو ما تدركه لندن، ولكن حرب الاستخبارات لا يمكن أن تقف لاسيما في ظل وجود حكم يميني قومي هجومي النزعة وإمبراطوري التفكير مثل الذي يقوده بوتين في موسكو، في بلد قوي له مصالحه الإقليمية والدولية، وتملك الكثير من عناصر قوة الدولة، وعلى رأسها القوة النووية، مثل روسيا.

الموقف الأوروبي والغربي.. نزوع نحو التهدئة

فيما يخص المآلات المستقبلية؛ فإنه لا يمكن توقُّع أن يزيد رد الفعل الأوروبي على وجه الخصوص عن المواقف الحالية.

ولكن في المقابل؛ فإن هيمنة روسيا على سوق الطاقة الأوروبي؛ حيث أحد أهم أعصاب الحياة اليومية والاقتصادية الإستراتيجية في أوروبا؛ تجعل هناك قيودًا على إمكانية تصعيد الأوروبيين لمواقفهم زيادة عن مسألة طرد بعض المسؤولين الروس أو التصعيد الكلامي الحالي.

فوفق أرقام مطلع العام 2018م؛ فلقد بلغ استهلاك الغاز الروسي في أوروبا "مستويات غير مسبوقة" وفق مراقبين أكدوا أنه بالرغم من إعلان الاتحاد الأوروبي منذ سنوات، عزمه تقليص اعتماده على إمدادات الغاز الروسي؛ فإن بروكسل لم تقُم بما هو ضروري لتحقيق ذلك.

ووصلت إمدادات مجموعة "جازبروم" الروسية، من الغاز إلى دول أوروبا وتركيا في العام 2017م، إلى مستوىً قياسي، بلغ 193.9 مليار متر مكعب، بزيادة حوالي 8 بالمائة عن العام 2016م.

إلا أن الأوروبيين عطلوا مشروع "«ساوث ستريم" الروسي لنقل الغاز إلى جنوب أوروبا عبر البحر الأسود وبلغاريا، وأبدوا كذلك تحفظات حيال مشروعين باشرتهما روسيا منذ ذلك الحين وهما خط "ترك ستريم" لنقل الغاز عبر تركيا، و"نورد ستريم 2"، لنقل الغاز عبر بحر البلطيق، وهما مشروعان تبررهما "جازبروم" بالنمو المتوقع في الطلب الأوروبي خلال السنوات المقبلة على الغاز الروسي.

فوفق أرقام مطلع العام 2018م؛ فلقد بلغ استهلاك الغاز الروسي في أوروبا "مستويات غير مسبوقة" وفق مراقبين أكدوا أنه بالرغم من إعلان الاتحاد الأوروبي منذ سنوات، عزمه تقليص اعتماده على إمدادات الغاز الروسي؛ فإن بروكسل لم تقُم بما هو ضروري لتحقيق ذلك.

ووصلت إمدادات مجموعة "جازبروم" الروسية، من الغاز إلى دول أوروبا وتركيا في العام 2017م، إلى مستوىً قياسي، بلغ 193.9 مليار متر مكعب، بزيادة حوالي 8 بالمائة عن العام 2016م.

إلا أن الأوروبيين عطلوا مشروع "«ساوث ستريم" الروسي لنقل الغاز إلى جنوب أوروبا عبر البحر الأسود وبلغاريا، وأبدوا كذلك تحفظات حيال مشروعين باشرتهما روسيا منذ ذلك الحين وهما خط "ترك ستريم" لنقل الغاز عبر تركيا، و"نورد ستريم 2"، لنقل الغاز عبر بحر البلطيق، وهما مشروعان تبررهما "جازبروم" بالنمو المتوقع في الطلب الأوروبي خلال السنوات المقبلة على الغاز الروسي.

وفي الآونة الأخيرة، بدت الدنمارك مترددة في مسألة السماح بمرور أنبوب الغاز الروسي "نورد ستريم 2"، في مياهها الإقليمية؛ حيث لا تزال تنتظر دعمًا سياسيًّا من الاتحاد الأوروبي.

لكن دول الاتحاد منقسمة حول هذا الموضوع؛ حيث تدعمه ألمانيا، في ظل تقارير عن بدء نضوب حقول الغاز الهولندية، فيما أوروبا الشرقية تطالب الدنمارك بعدم السماح للأنبوب بالمرور، بسبب الاعتبارات المتعلقة بالمناوئة الروسية لها.

الولايات المتحدة بدورها تدعم موقف أوروبا الشرقية، وتحذر الدنمارك من مد الأنبوب، لأنه سوف من سيطرة روسيا على أوروبا.

.....

في الأخير؛ يقول بول آر. بيلر، وهو باحث في مركز الدراسات الأمنية بجامعة جورج تاون الأمريكية، وكان ضابطًا كبيرًا في وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية (CIA)، إن الغرب يتحمل مسؤولية هذا السلوك العدائي الروسي.

ويرجع ذلك إلى ما وصفه بإجحاف في التعامل مع روسيا بعد الحرب الباردة، وإنه كان ينبغي الترحيب بها لكن بدلاً من ذلك نُظر إليها على أنها "خليفة للاتحاد السوفييتي السابق؛ لترث مكانته كمحور رئيسي لعدم الثقة في الغرب".

وأشار إلى دور توسيع حلف "الناتو" في تعميق هذه الحالة؛ حيث ضم دولاً كان لها أبلغ الأدوار في إسقاط الكتلة الشرقية بالكامل، وتقويض سيطرة موسكو في هذه المناطق، مثل بولندا والتشيك والمجر، كما ضم الحلف دول البلطيق الثلاث، التي كانت في الأصل جزءًا من روسيا في وقت من الأوقات.

وهو رأي يتفق معه السير جون سويرز، الرئيس السابق للاستخبارات الخارجية البريطانية (إم. آي. 6)، الذي قال إن :حل المشكلات الإقليمية مثل سوريا أو أوكرانيا أو كوريا الشمالية التي ظهرت سريعا أمامنا، سيكون أيسر حال بناء إطار علاقات أكثر إيجابية مع روسيا".

وبالتالي؛ وفي ظل هكذا أوضاع يمكن فهم الهجوم الكيماوي الذي شنه الروس في قلب بريطانيا التي لم تعد عظمى، وأنه من المرجح أن نرى المزيد من "الأكشن" الروسي خلال المرحلة المقبلة!

مجموعة من الباحثين في مركز سام للدراسات الإستراتيجية